شهريات

بقلم
رئيس التحرير

سارتر .. والعمى

أجرت مجلة « اوبسرفاتور » الفرنسية حديثا مع جان بول سارتر أعلن فيه انه قد أصيب مؤخرا بالعمى ، وانه سينقطع منذ الان عن الكتابة ، ولن يمارس الا بعض النشاط التلفزيوني ..

ويعرف قراء « الآداب » أننا كنا ، شخصيا ، نولي صاحب « دروب الحرية » اهتماما كبيرا ، واننا ترجمنا من آثاره الى العربية عددا كبيرا لقي من اقبال القراء العرب واعجابهم ما لم يحظ به اديب اجنبي منذ عصر النهضة .

ذلك ان سارتر كان يجسد في كتاباته ومواقفه نموذج المفكر الملتزم بقضايا الشعوب ، المدافع عن حقوقها ونضالها من أجل حرياتها . وما تزال ماثلة لنا مقالاته ومؤلفاته تأييدا لكفاح شعوب الجزائر وكوبا وفيتنام ، ومشاركاته في المسيرات والتظاهرات المناصرة لقضايا التحرر على تنوّع اشكالها .

وحين كان القراء العرب يقبلون اقبالا شديدا على قراءة آثار سارتر ، فانما كانوا يعبرون عن اشواقهم للحرية والمسؤولية ، ذينك المحورين اللذين كانت الامة العربية تفتقدهما في حياة المجتمع العربي .

وحين كنا نستجيب لحاجة القراء العرب ، نحن الذين ترجمنا سارتر وسواه من اقطاب الفكر الوجودي ، مع زملاء لنا من الوطن العربي كله ، فانما كنّا نعلّق الآمال العريضة على ان نكتسب لقضايا التحرر العربي ، وعلى رأسها قضية فلسطين ، مفكرا عالميا يستمع الى صوته ملايين القراء .. وكان الامل يداعب مشاعرنا في ان نرى ذلك الكاتب الذي ساند نضال الشعب الجزائري وفضح « عار الفرنسيين في الجزائر » ينحاز الى الشعب الفلسطيني ويعمل على فضح « عار الصهاينة في فلسطين » .

وحتى ما قبل حرب حزيران ٦٧ ، كنّا ما نزال نرجو ان نكتسب سارتر الى جانبنا ، جانب الشعب الفلسطيني في الارض المحتلة . وحين دعته جريدة « الاهرام » الى زيارة مصر في شهر آذار ٦٧ ، ازداد املنا في ان ينجح المثقفون العرب الذين سيلتقون به باقناعه بعدالة قضيتنا .. وقد سافرت الى القاهرة ، في تلك الاثناء ، للقاء سارتر وتأدية دوري ، كواحد من اكبر مترجميه في العالم العربي ، في الحوار المنتظر معه . وحين قدمني اليه الصديق لطفي الخولي ، حدّد لي موعدا للقاء ، ولكن كلود لانزمان الكاتب الفرنسي المناصر للصهيونية واحد اعضاء لجنة تحرير مجلة « تان مودرن » كان ، كما عرفت فيما بعد ، وراء الغاء ذلك الموعد .. غير اني كنت اعلّق اهمية كبيرة على الزيارة المقررة لسارتر الى غزة ومعسكرات اللاجئين فيها ، حيث كنت أعتقد ان « عين » الكاتب الفرنسي الملتزم قد تكون أقوى من حجج المثقفين في كشف الحق الفلسطيني ..

واخذنا ننتظر موقف سارتر ، بعد ان زار مصر وغزة واسرائيل .. فاذا بأملنا يخيب قبيل حرب حزيران وفي اثنائها اذ رأيناه ينحاز الى جانب اسرائيل والصهيونية ..

وليس يهمنا كثيرا ان نتثبّت من حقيقة ما قيل عن الضغط الشديد الذي مارسته الصهيونية ومجنّدوها على الكاتب الفرنسي لتوقيع «بيان المثقفين الفرنسيين» في تأييد اسرائيل .. حتى لقد قيل ان كلود لانزمان نفسه قد هدّد سارتر بان ينتحر امام عينيه اذا لم يشارك في توقيع البيان والسير في طليعة التظاهرة .. كما قيل ان سكرتيرة سارتر اليهودية تمارس عليه تأثيرا كبيرا ..

الذي يهمنا ان صاحب « دروب الحرية » رضخ لعبودية الضغط الصهيوني ، فأعلن تأييده لاسرائيل ، وان كنّا قد قرأنا بعد ذلك انه كان يعاني تأنيب الضمير من موقفه ذاك . غير انه ظلّ صامتا حتى اليوم ، وفجع المثقفين العرب بهذا الموقف الذي يتناقض مع مواقفه السابقة واللاحقة بمساندة حق كل شعب ضيم في حريته ووجوده .

واليوم ، قد نحزن ونأسف ، اذ نقرأ ان سارتر قد اصيب بالعمى .. ولكننا اشد حزنا واسفا لاعتقادنا بأنه فقد بصيرته منذ اسدلت الصهيونية على عينيه غشاوة كثيفة امام معسكرات اللاجئين في غزة ...

* * *

نموذج طفيليّ آخر ...

نشرت جريدة « الانوار » البيروتية ، بتاريخ ١٠ تموز ١٩٧٥ ، الكلمة التالية تحت عنوان « ابعد من الصمت »، بتوقيع « آمال ناضر » :

« اثناء المحنة التي مر بها لبنان مؤخرا ، ترقب المثقفون خطة جديدة وهامة يتبناها اتحاد الكتاب اللبنانيين ، وتنشر في مجلة الآداب في عددها الاخير ، التي يصدرها الدكتور سهيل ادريس والتي تنطق باسم هذا « الاتحاد » . وتكون هذه الخطة بمثابة الدور الذي سيلعبه الكتاب في المستقبل لدعم « مستقبل لبنان الثقافي » .

لكن ، على ما يبدو ، ان الدكتور سهيل ادريس اكتفى في البوح عن احاسيسه وشعوره تجاه ازمة لبنان كما اكتفى في ملازمة الصمت.

فالدكتور ادريس الذي هو في الهيئة الادارية لاتحاد الكتاب اللبنانيين ، والذي كان سابقا امينه العام ، استسلم للحزن والصمت . فالرصاصة بدت له اقوى من الكلمة واقوى من الانسان ، لكن اين كان صوت المثقف حامل الكلمة تجاه صوت الرصاصة حاملة الموت ؟

يتحدث صاحب « الحي اللاتيني » عن نفسه في مقاله « الصمت والزيف » بانه اثناء الازمة شارك في بعض المؤتمرات ، غير انه ادرك

اكثر من اي وقت مضى ان المؤتمرات واللقاءات والاجتماعات والبيانات قد تكفي « لتسجيل المواقف » و « التعبئة العاجلة » ولكنها في حياة الكاتب الملتزم ، لا يمكن ان تغني عن الاثر الفني الذي يبقى هو وحده ، الشهادة المعبرة ، عن وجدان الكاتب والمتلقي في آن واحد .

والصمت الذي يتحدث عنه صاحب « الآداب » هو صمت الملتزم الذي يتفرغ لكتابة الرواية ـ الشهادة ـ الوثيقة .

وهنا نتساءل : ماذا ينفع القارىء في ان يربح روايته ونانقيه ويخسر انسانيته الثقافية ؟

فليكن الصمت العميق رفيق المثقف في المستقبل ، تلعب كلماته على اوتار الفوضى والدمار ، وليعش في مكتبته وبين اوراقه لكي تنجو الرواية الوثائقية ! » .

لا بدّ ان يكون القراء ، الذين اطلعوا على كلمتي في العدد السابق من «الآداب» ،قد لاحظوا ان الكاتبه حاولت ان تلخّص بعض افكاري ، ولكنها ، بلا ريب ، قد شوهت الفكرة الاساسيه في الكلمه .

فالكاتبة ، اولا ، غير امينة للواقع . او غير متابعة له ، وهذا أسوأ ، حين تدعي ان « الاتحاد » لم يصدر بيانا عن المحنه . فالواقع ان اتحاد الكتاب اللبنانيين اصدر بيانا هاما في اعقاب مؤتمر ثقافي عام حضرته احدى وثلاثون هيئة ثقافيه في لبنان وناقشته وعدّلت فيه قبل تبنّيه .. وكان ذلك قبل عشرة ايام على الاقل من كلمة الكاتبة النابهة ! فاين كانت حضرتها ؟ ولماذا لم ينبّهها الى ذلك المشرفون على الصفحة الثقافية في « الانوار » وفيهم رفيق لها عضو في « الاتحاد »؟

اما ان « الآداب » لم تنشر هذا البيان ، فلأن البيان ، كان ، بكل بساطة، قد صدر بعد صدور العدد الماضي !»(١)

ومظهر آخر من مظاهر عدم الامانة . أو تشويه الوقائع قولها :« فالرصاصة بدت له اقوى من الكلمة واقوى من الانسان .. » ولست ادري كيف استنتجت الكاتبه هذا الحكم الذي لا توحي به كلمتي على الاطلاق . بل هو يتناقض كل التناقض مع ما قلته ، ومع جميع آرائي ومواقفي والتزاماتي الفكرية .

وفي التعليق ، تذهب الكاتبة الى انني اكتفيت في (كذا !) البوح عن احاسيسي وشعوري تجاه ازمه لبنان . كما اكتفيت في (كذا ايضا باصرار !) ملازمة الصمت ..

تقول ذلك بالرغم من انها اوردت فيما بعد اني شاركت في المؤتمرات واللقاءات والاجتماعات والبيانات ، وان كنت قد ذكرت ان ذلك لا يمكن ان يغني الكاتب الملتزم عن كتابة الآثار الفنية .. فاذا كانت الكاتبة قد اعترفت بأني اكتفيت بالبوح عن احاسيسي وشعوري تجاه ازمة لبنان ، فماذا كان مطلوبا مني ، في رأيها ، ان افعل في اثناء المحنة ، اكثر من ذلك ؟ ما المطلوب من الكاتب في اثناء المعارك الحربية اذا لم يكن يحسن حمل السلاح ، او حتى ولو كان يحسن حمله ولكنه لا يواقق على اجراء حوار حضاري بواسطته ؟ واي مثقف في لبنان فعل ويمكن ان يفعل اكثر مما فعلت ،في اثناء المحنة ؟

ومع ذلك ،فان المقال الذي نشرته « الآداب » في عددها الماضي (١) يحمل شعور الكاتب بأن كل ما قام به لا يغني عن اصدار اثر فني يكون شهادة ووثيقة للتعبير عن وجدانه ووجدان المجتمع اللبناني وعن اشواق الجيل الواعي في هذا المجتمع لخلق مستقبل افضل .. ولما كان هذا الكاتب روائيا ، فقد وعد بأن يصدر هذه الشهادة الوثيقة في رواية سيتفرغ لها منذ الآن .. وهو من اجل ذلك، يرى ان يلتزم في هذه الفترة صمتا عميقا « يتوغل في احشاء الحقيقة ، ويهيىء للكلمة ان تؤدي دورها كالرصاصه والبندقية (..) منطويا على الكتب والمراجع ، منتشرا في داخل الحقائق والوقائع ، مدققا في اختيار نماذجه البشرية ، المزيفة المنافقة ، والمصارعة من اجل مجتمع صحي سليم » .

فما مأخذ الست آمال ناضر على ذلك ؟ هل كانت تنتظر ان اصدر هذه الروايه فورا ، وبمثل السرعه والفجاجه والتفاهه التي يكتب بها معظم محرري الصفحات الثقافيه عندنا كلامهم المتهافت اللامسؤول ؟

تقول الكاتبة معلقة : « وهنا نتساءل : ماذا ينفع القارىء في (كذا ايضا .. ما اشد غرامها بحرف الجر هذا !) ان يربح روايه ونانقيه ويخسر انسانيته الثقافيه ؟ »

ونحن نسالها : هل تتنازل فتشرح لنا ما الذي تعنيه « بانسانية القارىء الثقافية » ؟ وتشرح لنا كذلك كيف يخسر القارىء هذه الانسانية اذا ابلغه كاتبه انه سينصرف بعد احداث دامية ، الى كتابة اثر فني ، وانه سيلتزم الصمت من اجل انجاز هذا العمل ؟

وليتأمل القارىء العبارة التي ختمت بها الكاتبة تعليقها : « فليكن الصمت العميق رفيق المثقف في المستقبل ، تلعب كلماته على اوتار الفوضى والدمار ، وليعش في مكتبته وبين اوراقه لكي تنجو الرواية الوثائقية !»

كلام سخيف بارد ، يحمل تهكما ممجوجا اذا اخذناه بحرفيته حكمنا بان الكاتبة تستهزىء بالجدّ والتأليف الحقيقي الملتزم ، وتنادي بكتابة التفاهات الآنية السريعة ، وتؤمن بان هذا هو دور المثقف !

* * *

لعلّ القارىء يتساءل الآن : لماذا اولي مثل هذا الكلام هذا القدر من الاهتمام ؟ وما وزن هذه الكاتبة وامثالها في حياتنا الادبية، وما هي آثارها واسهامها في الوضع الثقافي في لبنان ؟

وجوابي أني كنت قد كتبت منذ أشهر آخذ على معظم محرري الصفحات الادبية في الصحف اللبنانية استهتارهم واستخفافهم بالنقد واعتمادهم العجلة والسطحية في تقييم الاعمال الادبية والنشاطات الثقافية وغرورهم المعيب واستغلالهم المنابر التي اعطيت لهم لاصدار احكام لا يملكون المقوّمات التي لا بدّ للناقد المسؤول منها لكي يصدرها .. ومنذ ذلك الحين ، والادلة تتكاثر على وجود هذه النماذج الطفيلية في حياتنا الادبية . وقد احببت اليوم ان اورد نموذجا جديدا مدعما بالبراهين !

وأودّ ان انتهزها فرصة لاتوجه الى رؤساء تحرير الصحف عندنا ، مناشدا اياهم مرة اخرى ، ان ينقذونا من هذه الطفيليات التي تسيء الى الصحافة المسؤولة الجادة اكثر مما تسيء الى الادب !

سهيل ادريس

---

(١) اقرأ نصه في هذا العدد في باب «النشاط الثقافي في العالم العربي»

(١) وقد نشر كذلك في جريدة « السفير » البيروتية ،في اعقاب المحنة.